الوحدة الفنيـــة فى القصيدة العربيـــة

دكتور سعد عبد السلام نصـــار

قسم الأدب والنقد

أولا : وحدة القصيدة فى النقد العربى القديم :

بدأت الدعوة الى وحدة القصيدة العربية منذ القرن الثالث الهجرى ، فقد أخذ النقاد يوصون الشعراء بأمر البدء وصلته بالغرض العام للقصيدة ثم الخاتمة فى كل من الشعر والنثر ، كما أولوا عنايتهم الى العلاقة بين معانى الابيات ، ومقارنة بعضها مع بعض فى داخل الجزء الواحد من القصيدة ، ولذلك عبوا انعدام هذه الرابطة بين الابيات ، فلا يصح أن يكون البيت مقرونا بغير جاره ، ومضموما الى غير لفقه يقول ابن قتيبة : « وتتبين التكلف فى الشعر ايضا بأن ترى البيت مقرونا بغير جاره ومضموما الى غير لفقه ، ولذلك قال عمر بن لجأ لبعض الشعراء : « أنا أشعر منك ، قال : وبم ذلك ؟ فقال : لانى أقول البيت وأخاه ، ولأنك تقول البيت وابن عمه »(١) ، فمن علامة جودة الشعر عندهم أن تكون هناك صلة وثيقة بين أبيات القصيدة وأن يرتبط البيت بما قبله وبما بعده ، وانه لمن التكلف أن يستكره الشاعر البيت فيضعه حيثما اتفق له من غير رعاية لتساوق الابيات وارتباط بعضها ببعض(٢) وعابوا أيضا أن تكون القصيدة حكما كلها ، لأنها اذا كانت كذلك(٣) فقدت وحدتها وأصابها التفكك بلا رابط يجمع بينها .

والجاحظ من أوائل النقاد الذين اتجهوا الى وجوب تنسيق الفكرة وتلاحم الاجزاء ، وتنظيم الافكار المتعاقبة كما يتضح ذلك من قوله : « أن أجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه أفرغ أفراغا واحدا وسبك سبكا واحدا(٤) » .

ويأتى بعد الجاحظ ابن طباطبا (٣٢٢هـ) ويدعو الشاعر الى أن يحكم

---

(١) الشعر والشعراء : ٣٦
(٢) التيارات المعاصرة فى النقد الادبى للدكتور بدوى طبانة : ١٣٩ ، ط : الاولى ١٩٦٣ ط : لجنة البيان العربى .
(٣) البيان والتبيين للجاحظ : ١/١٥٠ .
(٤) العمدة : ١/١٧١ .

نسج القصيدة وأن يوفق بين معانيها والفاظها ، وأن يتلطف فى الخروج من معنى الى آخر حتى تكون كلها عمـــلا واحدا يشبه أوله آخره ، وهو بهـــذه الدعوة يعد من الرعيل الاول الذى أرسى دعائم الوحدة الفنيـــة فى القصيدة العربية يقول : « وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله فان قدم بيت على بيت دخله الخلل .... فان الشعر اذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها ، وكامـــا كانت الحكمة المستقلة بذاتها ، والامثلة السائرة المرسومة باختصارها لم يحسن نظمه بل يجب أن تكون القصيدة كلها واحدة فى اشتباه أولها بآخرها ، نسجا وحسنا وفصاحة ، وجزالة ألفاظ ورقة معان ، وصواب تأليف ، ويكون خروج الشاعر من معنى يضنعه الى غيره من المعانى خروجا لطيفا ، حتى تخـــرج القصيدة كأنها مفرغة افراغا(٥) ، ويقول : « فاذا أراد الشاعر بناء قصيدة فحص المعنى الذى يريد بناء الشعر عليه ... فاذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذى يرومه أثبته ، واعمـــل فكرة فى شغل القوافى بما تقضيه من المعـــانى على تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه ، بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه ، على تفاوت ما بينه وبين ما قبله ، فاذا كملت له المعانى ، وكثرت الابيات وفق بينهـــا بأبيات تكون نظاما لها وسلكا جامعـــا لما تشتت(١) منهـــا « ويدعو الشاعر الى حسن التخلص حتى تتصل المعانى وتتماذج بقوله : « ان الشعر كفصول الرسائل ، فيحتاج الشاعر الى أن يصل كلامه على تصرفه فى فنونه صلة لطيفـــة فيتخلص الغـــزل الى المديح الى الشكوى ومن الشكوى الى الاستماحة ، ومن وصف الديار والآثار الى وصف الفيافى والنوق ... بألطف تخلص وأحسن حكاية بلا انفصال للمعنى الثانى عما قبله ، بل يكون متصلا به وممتزجا معه(٢) » ونراه فى موضع آخر يلزم الشـــاعر بأن يربط اجزاء

---

(٥) عيـــار الشـــعر : ١٢٦
(٦) عيار الشعر : ٥
(٧) النموذج السابق : ٦

القصيدة بعضها ببعض ، ويصل أبياتها جميعا بحيث لا يكون بينهـــا فجوات أو ثغرات يقول : « وينبغى للشاعر أن يتأمل تأليف شعره ، وتنسيق أبياته ، ويقف على حسن تجاووها أو قبحه ، فيلائم بينها ، لتنظم له معانيها ، ويتصل كلامه فيها ، ولا يجعل بين ما قد ابتدأ وصفه وبين تمامه فصلا من حشو ليس من جنس ما هو فيه ، فينسى السامع المعنى الذى يسوق القول اليه(٣) .

ولعل الحاتمى أكثر نقادنا العرب القدامى تفهما لحقيقة الوحدة الفنية فى القصيدة العربية ، ولذلك يعد نصه من أوضح النصوص وأقواها فى الدعوة الى وحدة القصيدة يقول : « ان القصيدة مثلها مثل خلق الانسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر ، وباينـــه فى صحـــة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه ، وتعفى معالم جماله ، ووجدت حذاق الشعراء ، وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون فى مثل هذه الحال احتراسا يحميهم من شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجمة الاحسان(٩) .

على الرغم من كل هذه النصوص التى تؤكد تفهم نقادنا العرب القدامى لوحدة القصيدة العربية ودعوتهم الشعراء اليها والزامهم بها على الرغم من ذلك فقد انطلقت أقلام النقاد العصريين تتهم القصيدة العربية القديمة بخلوها من الوحدة الفنية ، ورموها بالتفككوا لانهيار ، وانها ليست الا أشلاء مبعثرة هنا وهناك ، نذكر من أولئك على سبيل المثال المستشرق « جب » الذى يذهب الى أن « الخلق الفنى لدى العرب سلسلة من بواعث منفصلة ، كل منها تام ومستقل بنفسه ، لا يربط بينها غاية أو انسجام أو تظن ، اللهم الا وحدة العقل الذى أبدعها »(١٠) ، ويبدو هذا التحاصل على تراثنا الشعرى أكثر وضوحا عند خليل مطران الذى يزعم أن الشعر العربى ليس فيه « ارتباطا بين المعانى

---

(٨) المرجع السابق : ١٢٤

(٩) العمدة : ٩٤/٢ ، زهر الاداب للحصرى : ١٦/٣ .

(١٠) راجع : النابغة الذبيانى للاستاذ عمر الدسوقى : ٥٣ ، ط نهضـــة مصر بالفجالة .

التى تضمنتها القصيدة الواحدة ، ولا تلاحما بين أجزائها ، ولا مقاصد عامة تقام عليها أبنيتها ، وتوطد بها أركانها ، وربما اجتمع فى القصيدة الواحدة من الشعر ما يجتمع فى احد المتاحف من النفائس ، ولكن بلا طلة ولا تسلسل وناهيك عما فى الغزل العربى من الاغراض الاتباعية التى لا تجتمع الا لتتنافر وتتناكب فى ذهن القارىء(١١) .

وليس صحيحا ما ذهب اليه خليل مطران من أن الاغراض لا تجتمع الا لتتنافر وتتناكب ، وذلك لأن الشاعر القديم حـ بين يأتى فى قصيدته بأغراض متعددة يربط بينها بأوثق رباط هو الرباط النفسى ، فقد ابتـــدأ بذكر الديار والدمن والآثار وبكى ، وخاطب السريع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها ... ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شـــدة الشوق ، والم الوجد والفراق ، وفرط الصبابة ، ليميـــل نحوه القلـــوب ، ويصرف اليه الوجوه ويستدعى به اصغاء الاسماع اليه ، لأن النسيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما قد جعل الله فى تركيب العبـــاد من محبـــة الغزل ، والف النساء ، فليس يكاد يخلو أحد من ان يكون متعلقا منه بسبب ، وضاربا فيه بسهم ، حلال أو حرام ، فاذا علم أنه استوثق من الاصغاء اليه ، والاستماع له ، عقب بايجاب الحقوق ، فرحل فى شعره ، وشـــكا النصب والسهر ، وسوى الليل وحر الهجير ، وانضاء الراحلة والبعير فاذا علم انه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وزمام التأميل وقدر عنده ما ناله من المكاره فى المسير ، بدأ فى المديح فبعثه على المكافأة وهزه على السماح ، وفضله على الاشباه ، وصغر فى قدره الجزيل(١٢) .

والعقاد يتخذ من قول العرب : هذا أفخـــر بيت وأغزل بيت وأشجع بيت ، وهذا بيت القصيد وواسطة العقد دليلا على تفكك القصيدة فى العصور

---

(١١) مقـــال لخليـــل مطران فى المجلة المصرية : ٢٢ ــ ٤٤ ، السـنة الاولى : ١٦ يونية ١٩٠٠ .

(١٢) الشعر والشعراء : ٢٠ ، ٢١

الماضية لأنه يرى أبياتها « كأنها عقد تشترى كل منها بقيمتهـــا فلا ينقـــدها انفصالها عن سائر الحبات شيئا من جوهرها(١٣) .

ولعل الذى دفع مطران والعقاد وغيرهما من النقاد المعاصرين الى اتهام القصيدة العربية بخلوها من الوحدة العضوية ، عدم تفهمهم الحقيقى لطبيعة الشعر الغنائى ، وأنه لا يخضع اطلاقا للوحدة العضوية بمفهومها النقـــدى الدقيق الذى وضح على يد العقاد وشـــكرى والمازنى ، وهؤلاء انفسهم لم يستطيعوا أن يحققوها فى نتاجهم تحقيقـــا كاملا ، وأرسطو نفســـه أعفى القصيدة الغنائيـــة من الوحدة العضوية ولم يفرضها الا على الشـــعر المســـرحى والملحمى الذى يقوم على ترتيب أجزاء الخرافة أو الحكاية ترتيبا احتماليا أو ضروريا(١٤) .

فالعقاد ومن على شاكلته من النقاد المعاصرين يرون أن وحدة البيت ، وأن اهتمام الشعراء القدامى بهذه الوحدة الجزئية ، وحرصهم على استقلال البيت بمعنى مفـــرد هو الذى جر الى تفكك القصيدة وجعـــل أبياتها تنتشر انتشار أبيات الحى وخيامه فى الصحراء ، ولا رابط بينها ولا اتصال ومثل هذه الدعوة باطلة ، لأنه لا مانع ـــ كما يرى ـــ بعض الباحثين من جعل البيت فى الشـــعر كالجملة فى النثر له أن يســـتقل وعلى الشـــاعر أن يربطه بما قبله وما بعده ربط الجملة بما قبلها وما بعدها تماما ، وعلينا أن نحاسبه على هذا الربط كما نحاسب الناثر(١٥) .

ومن عجيب أن أولئك النقد الاحدثين الذين يفرضون على الشعراء أن يخضعوا للوحدة العضوية لم تتحد آراؤهم بعد على مفهـــوم محـــدد لهذه

---

(١٣) فصول من النقد عند العقاد تقديم محمد الخليفة التونسى : ٨١ ط : دار الهنا .

(١٤) راجع : النقـــد الادبى الحديث للدكتـــور محمـــد غنيمى هلال : ٦٥ ـــ ٧٠ . .

(١٥) اتجاهات وآراء فى النقد الحديث للدكتور محمد نايل : ط : العاصمة

الوحدة بل ذهبوا فى تعريفها مذاهب شتى فهى حينما تعنى وحدة الموضوع بحيث لا تتعدد الاغراض فى القصيدة الواحدة فلا يجوز أن يجتمع فيها غزل وفخر ووصف ومدح ، وبذلك فالقصيدة الجاهلية وما جاء على نهجها من الشعر الاسلامى والاموى والعباسى لا تحظى عندهم بالرضا والقبول ، لأنه لم يتحقق فيها وحدة الموضوع وحينا آخر تعنى وحدة الافكار والمشاعر ، وأن تباعدت تلك الافكار والمشاعر ، ولم يسهل الربط بينها ، لتشمل الوحدة فى الشعر الرمزى وبعض الشعر الرومانسى ، وهذا الرأى قد يتسع ويتسامح فيقبل القصيدة الجاهلية وما سرى سراها على أن بها ترابطا نفسيا دعت الى طبيعة البيئة ومشاهدها فى الصحراء والجبال والاطلال وما اليها (١٦) ، وقبل أن أبين المفهوم الحقيقى للوحدة والذى يجب أن تخضع له القصيدة الغنائية . أود أن أقف مع نقادنا المحدثين منذ أن بدأ حديثهم عن الوحدة العضوية التى باسمها هجموا القصيدة العربية فى جميع العصور ، لنعرف الدوافع التى حركتهم لهذه الدعوة ، أهى الرغبة فى النهوض بالقصيدة العربية ؟ أم أن هناك خلفيات وراء هذه الدعوة ؟ وهل الآراء التى رددوها كانت لهم ابتداء ؟ أو أنها آراء رددت قبلهم ؟ ودعوة نادى بها غيرهم فى العصور الماضية ؟

ثانيا : وحدة القصيدة فى النقد الحديث : —

تطالعنا بشائر الدعوة الى وحدة القصيدة فى العصر الحديث على يد الشيخ حسين المرصفى (١٨٨٩ م) حين قال عن قصيدة البارودى التى مطلعها :

تلاهيت والا ما يجن ضمير وداربت الا ما ينم زغير (١٧)

« انظر هداك الله لابيات هذه القصيدة فأفردها بيتا بيتا تجد ظروف

---

(١٦) المرجع السابق : ٥٤ .
(١٧) الديوان : ٢/٢٤ .

جواهر أفردت كل جوهرة لنفاستها بطرف ، ثم اجمعها وانظر جمال السياق وحسن النصق ، فانك لا تجد بيتا يصح أن يقدم أو يؤخر ، ولا بيتين يمكن أن يكون بينهما ثالث ، وأكلك الى سلامة ذوقك وعلو همتك ، أن كنت من أهل الرغبة فى الاستكمال لتتبع هذه الطريقة المثلى(١٨) » .

ومع مطلع القرن العشرين ينادى مطران بالوحدة العضوية فى مقال له نشر فى المجلة المصرية بعنوان « الكتاب أمس والكتاب اليوم » ينعى فيه على القصيدة العربية تعدد الاغراض فيها ومن ثم لا نجد ارتباطا بين معانيها(١٩) .

وفى سنة ١٩٠٨ يصدر الجزء الاول من ديوان مطران وفى مقدمته بغمر الشعر العربى تحت ستار الدعوة الى وحدة القصيدة ، وان كان لم يصرح بهذه الدعوة وانما فهمت من قوله : « هذا شعر ليس ناظمة بعبده ، ولاتحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده ، يقال فيه المعنى الصحيح فى اللفظ الفصيح ، ولا ينظر قائله الى جمال البيت المفرد ولو أنكر جاره ، وشاتم أخاه ، دابر المطلع وقاطع المقطع ، وخالف الختام ، بل ينظر الى جمال البيت فى ذاته وفى موضعه والى جملة القصيدة فى تركيبها وفى ترتيبها ، وفى تناسق معانيها وتوافقها ، مع ندور التصور وغرابة الموضوع ومطابقة كل ذلك للحقيقة ، وشفوفه عن الشعور الحر وتحرى دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر »(٢٠) .

لا جدال أن مطران يتجنى على الشعر العربى وأنه ليس صادقا فى دعوته والا فماذا يقصد بقوله : « هذا شعر ليس ناظمه بعبده ، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده « هل كان شعراء العرب — وخاصة فى القرن الثالث الهجرى حيث الازدهار والحضارة — عبيدا

---

(١٨) الوسيلة الادبية للشيخ حسين المرصفى : ٢/٤٧٧ .
(١٩) راجع المقال فى المجلة المصرية : ٢٢ — ٤٤ ، السنة الاولى العدد الثانى ١٦ يونية ١٩٠٠ .
(٢٠) مقدمة الديوان : ١/٨ ، ٩ مطبعة دار الهلال ١٩٤٨ م

لاشعارهم ؟ ! هل كان أبو تمام حامل لواء الشعر العربى فى عصره الذهبى ، والبحترى وابن الرومى وابن المعتز أولئك الاعلام وغيرهم ، تحملهم ضرورات الوزن أو القافية على غير قصدهم ؟ !

يبدو أن مطران : « كان معجبا بعمله سعيدا بما أحرزه من التوفيق فى هذا الصدد ، فقال كلامه السابق وكأنه لم يكن أمامه وهو يقول ذلك الا شعر البديعات مما خلف عصر الاتراك والمماليك . فهذا الشعر وحده هو الذى كانت تحمله ضرورات الوزن والقافية على غير قصده حينا . أما ما سبقه من شعر فى كافة العصور ، وأما ما كان بعده ، مما عاصر مطران من شعر البارودى وشوقى وحافظ فما عرف هذه الضرورات ولا لجأ اليها(٢١) . « ثم أى جديد فى هذا الحديث ، حديث البيت الذ ىينكر جاره ويشاتم أخاه ؟ وحديث التركيب والترتيب والتواف ق فى القصيدة ؟

أليس هو حديث الجاحظ من أول القرن الثالث الهجرى عن التلاحم والتوافق وعن البيت وأخيه والبيت وابن عمه(٢٢) .

وأليس هو أيضا حديث ابن قتيبة فى القرن الثالث الهجرى حين قال : « وتتبين التكلف فى الشعر أيضا بأن ترى البيت مقرونا بغير جاره ومضموما الى غير لفقه ، ولذلك قال عمر بن لجأ لبعض الشعراء : « أنا أشعر منك ، قال وبم ذلك فقال : لأنى أقول البيت وأخاه ، ولأنك تقول البيت وابن عمه»(٢٣) .؟

ومطران هذا الذى غمز شعرنا العربى وهجمه لخلوه من الوحده العضوية التى يدعو اليها — والتى تعنى عنده أن تكون الافكار قد رتبت الترتيب المنطقى الذى جعله الشاعر أحد أهدافه ، ولأن المعانى قد تناسقت

---

(٢١) اتجاهات وآراء فى النقد الحديث : ٧٠ ، ٧١ .
(٢٢) راجع : البيان والتبين : ٦٢/١ ، ٦٣ والحيوان : ١٣١/٣ ، ١٣٢
(٢٣) الشعر والشعراء : ٣٦ .

وارتبطت ، فلا يمكن بعد ذلك نقل البيت من مكان الى آخر ، وانما تمر المعانى فى ذهن القارىء منتظمة منسجمة متصلة وتتسلسل الخواطر تسلسلا منطقيا ولهذا فان أى تغيير فى ذلك يؤثر فى الكيان العام للقصيدة(٢٤) » عجـــز عن تحقيق هذه الوحدة بهذا المفهوم النقدى الدقيق فى ديوانه بأجزائه الاربعة ، اللهم الا القصائد التى غلب عليها الجانب القصصى والتاريخى ، أما قصائده الغنائية فانها تفقـــد هذه الوحـــدة ولا يظهر لها أى أثـــر ، ومن اليسير أن يتقدم البيت و يتأخر او يلغى من القصيدة ، دون أن يتأثر المعنى أو تهتز الفكرة العامة التى يريد التعبير عنها حتى قصيدته « المساء » لم تتحقق فيها الوحدة العضوية بمفهومها النقدى الدقيق ، ولذلك رأينا ناقدا مثل الدكتور محمـــد مندور يقول عن الوحدة التى يدعو اليها مطران : « وهى وحدة لا أظنها تتوفر فى يسر للقصائد الغنائية الخالصة التى تبنى على خواطر أو أحاسيس متناثرة وليس من الضرورى أن تخضع لنسق تسلسل محدد حتمى بحيث لا يمكن تقديم بيت فيها عن موضعه أو تأخير بيت وانمـــا يمكن أن تتوفر فى القصيدة ذات الموضوع القصصى أو الدرامى مثل قصائد « فنجان قهوة » و « الجنين الشهيد » و « فتاة الجبل الاسود » و « نيرون » وغيرها من القصائد القصصية التى أنشأها خليل مطران(٢٥) » .

كما أن مطران الذى هجم الشعر القديم ، كثيرا ما حاكاه وقلده ،فقد نظم عددا من قصائده فى الاغراض القديمة من غزل ووصف ومدح ، بل أن له قصائدة حول الاغراض الدارجة والمناسبات العابرة ، والمشاعر السطحية التافهة(٢٦) .

---

(٢٤) التجديد فى شعر خليل مطران للدكتور سعيد حسين منصور:١٥٢ ط١ مطـــابع عابدين ١٩٧٠ .

(٢٥) من مقال للدكتور محمد مندور بعنوان « نظرة فى شعر مطران » بمهرجان خليل مطران للمجلس الاعلى للفنون والآداب يونيو ١٩٦٠

(٢٦) راجع : جماعة ابو لو وأثرها فى الشعر الحديث لعبـــد العـــزيز الدسوقى ، المطبعة الثقافية : ١٩٧١ .

واذا تركنا مطران الذى تبين لنا أنه لم يكن صادقا فى دعوته وانه لم يستطع أن يطبق الوحدة العضوية التى نادى بها على قصائده الغنائيـــة ، والتى باسمها تناول القصيدة العربية فى العصور الماضية بالتجريح ، رأينا العقاد أكثر النقاد المحدثين دعوة الى الوحدة العضوية ، وكان أوضحهم منهجا وأشدهم عمقا فى دعوته اذ يذكر أن القصيدة « ينبغى أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أوخواطر متجانســـة ، كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصورة بأجزائها ، واللحن الموسيقى بأنغامه ، بحيث اذا اختلف الوضـــع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها ، فالقصيدة الشعرية كالجســـم الحى ، يقـــوم كل قســـم منها مقـــام جهـــاز من أجهزته ، ولا يغنى عنه غيره فى موضعه الا كما تغنى الاذن عن العين، أو القدم عن الكتف أو القلب عن المعدة ، أو هى كالبيت المقسم لكل حجرة منه مكانها وفائدتهـــا وهندستها ، ولا قوام لفن بغير ذلك »(٢٧) . ويذكر فى الكلمة الختامية التى وردت فى آخر الجزء الرابع من ديوانه أن : « الاسلوب الذى يطلبه قارىء يكتفى بالبيت بعد البيت كأنه شيء مستقل عما قبله وبعده ، غير الاسلوب الذى يطلبه قارىء يحوجه البيت الى تذكر ما سبقه وترقب ما بعده، فهذا لايستريح تشوقه الا بعد الفراغ من القصيدة ولا يحكم على أسلوبها الا بنسقها الشامل لاقسامها وأبياتها(٢) »

والقصيدة عنده « بنية حية ، وليست قطعا متناثرة يجمعها اطار واحد فليس من الشعر الرفيع تغير أوضاع الابيات فيه ولا تحس منه ثم بتغير فى قصد الشاعر ومعناه »(٢٩) والشعر الجيد عنده هو الذى يخضع لهـــذه المقاييس الثلاثة :

---

(٢٧) الديوان فى الادب والنقد للعقاد والمازنى : ١٣٠/٣ ط دار الشعب ط ثالثة ديوان العقاد : ٤٦/٤ .

(٢٨) ديوان العقاد : ٣٥٢/٤ مطبعة البوسفور ١٦ ،١م .

(٢٩) مجلة الكتاب : ١٥٠٦ ، عدد أكتوبر ١٩٤٧ .

أولها : أن الشعر قيمة انسانية قبل أن يكون قيمة لفظية أو صناعية فيحتفظ الشعر بقيمته العالية اذا ترجم الى اللغات الاخرى .

ثانيها : أن الشعر تعبير عن نفس صاحبه ، فالشاعر الذى لا يعبر عن نفسه صانع وليس ذا شخصية أدبية ، فاذا قرأت ديوانه ولم تعرفه منه فهو الى التنسيق أقرب منه الى التعبير .

ثالثا : ان القصيدة بنية حية ، وليست قطعا متناثرة يجمعها اطار واحد،فليس من الشعرالرفيع شعر تغيرفيه أوضاع الابيات،ولا تحس منه ثم تغييرا فى قصد الشاعر ومعناه ... وطبق هذه المقاييس الثلاثة على شوقى ، وقال أنه ليس بشاعر على أى مقياس من المقاييس الثلاثة(٣٠) .

ومن عجب أننا لو طبقنا المقياس الثالث على قصائد العقاد الغنائية لانهارت من أساسها ، ولما صمدت أمام هذا المفهوم الدقيق للوحدة العضوية التى نادى بها فى الديوان(٣١) . بل انه من الاستحالة أن تخضع أى قصيدة غنائية لأى شاعر أيا كان موطنه لهذه الوحدة التى تريد من الشاعر أن يجعل قصيدته مثل أعضاء الانسان فلا يصح وضع عضو مكان آخر « كما أن المطالبة بالوحدة العضوية لا تكون الا فى فنون الادب الموضوعى ، فلا ينبغى ان يطالب بها الا فى الشعر الموضوعى ذى الطابع الواقعى الذى يبنى القصيدة فيه على قصة قصيرة أو دراما سريعة ، وأما الشعر الغنائى الخالص ، أى شعر الوجدان فمن أكبر التعسف مطالبة الشاعر بمثل تلك الوحدة التى لا تقبل تقديما أو تأخيرا فى نسق أبياتها(٣٢) » ولأن « الاعمال الادبية الناجحة هى

---

(٣٠) من مقال للعقاد نشر فى مجلة الرسالة عدد : ٧١٩ ، ١٤/٤/٤٧ ، مجلة الكتاب عدد أكتوبر ١٩٤٨ ، راجع فى الادب الحديث لعمر الدسوقى : ٢٦٢/٢ ط : ٤ مطبعة الرسالة ١٩٦١ .

(٣١) الديوان للعقاد والمازنى : ١٣٠ .

(٣٢) النقد والنقاد المعاصرون للدكتور محمد مندور : ١١٨ ط : نهضة مصر وراجع : مع العقاد للدكتور شوقى ضيف : ١٥٤ ط : دار المعارف (اقرأ عدد ٢٥٩) ١٩٦٤ .

نتاج الشعور أولا والعقل ثانيا والشعور لا يعرف التنظيم المقصود . انه نبع يفيض فى أى اتجاه دون ضابط أو موجه» (٣٣) ولذلك فان القصيدة عند العقاد وان تحققت فيها الوحدة الموضوعية الا أنه لم يستطع أن يحقق فيها الوحدة العضوية(٣٤) ولعل ما يؤكد لك أن العقاد لم يلتزم بالمقاييس التى جعلها أساسا للوحدة العضوية والتى طبقها على شعر شوقى وحافظ ، لينفى عنهما الشاعرية أنك لو طابقت الطبعة الاولى من ديوانه التى صدرت سنة ١٩١٦م بالطبعة الثانية التى صدرت سنة ١٩٦٧ لتبين لك الى أى مدى كان العقاد يتلاعب بأبيات القصيدة عند اعادة طبعها ، وطابق على سبيل المثال بين قصائده « الحب الاول » و « شياطين السباق » و « الكروان » و « صورة الحبيب » و « ليلة الاربعاء » ترفيها تغييرا بالحذف وتبديلا لوضع بعض الابيات بالتقديم والتأخير(٣٥) . الامر الذى يجعلك تعلن فى شجاعة أن العقاد حينما كان حريصا على تطبيق الوحدة العضوية على القصيدة العربية والا أصبحت فى نظره كومة من الرمل لا روح فيها ولا شعور(٣٦) — لم يكن صاحب دعوة صادقة ، وانما كان مغرضا فى دعوته مثل خليل مطران ، غير أن مطران كان يريد غمز الشعر العربى . أما العقاد فكان يهدف من وراء دعوته أن يهجم شوقى شاعر القصر ، وحافظ شاعر الحزب الوطنى ، للاعتبارات السياسية التى كانت تسود الجو السياسى ، وكان الالحاح على هدم شوقى وشعره أشد وأعنف ، ونقده نقدا لاذعا يفيض بالسخرية المرة فقد تناول قصيدته فى رثاء مصطفى كامل بالنقد والتجريح ، ووصفها بأنها

---

(٣٣) تاريخ الشعر العربى للدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى : ٢٠٢/٤ نهضة مصر ط ١

(٣٤) راجع : الادب وفنونه لعز الدين اسماعيل : ٣٥ — ١٤٧ ط : مخيمر ١٩٥٨ م .

(٣٥) راجع ديوان العقاد ط : الثانية ١٩٦٧ صفحات : ٢٠ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٧٥ وراجع : قضايا النقد الادبى الحديث للكتور محمد لسعدى فرهود : ١١٣ ط : زهران ١٩٦٨ تبصر كثيرا من قصائد العقاد التى أصابها كثير من التعديل عند اعادة طبعها .

(٣٦) راجع الديوان فى الادب والنقد للعقاد والمازنى : ١٣٢/٢

آية الشعوذة والتفكك وانعدام الشعور وانها زيف وهراء وزلة وداهية(٣٧) وانها كومة من الرمل لأنك مهما غيرت فى وضع أبياتها لا تراها تعود الا كومة رمل كما كانت ، لأنها أبيات مشتتة لا روح فيها ولا سياق ، ولا شعور ينتظمها أو يؤلف بينها(٣٨) وراح يقدم ويؤخر فى أبيات القصيدة ليثبت لنا انها تفقد الوحدة العضوية ، والعقاد بذلك كان بعيدا عن منهجيـــة النقد ، ذلك لأن قصائده هو نفسه الغنائية ـــ كما وضحت سابقا ـــ أمكن فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة ، كما أنه كما يذكر بعض المحدثين جعل « المنهج التجـــريبى فى المعرفة أساسا نقديا ، ذلك أن اعادة نظم احدى القصائد هو بمثابة ادخال القصيدة معملا شعريا تنحل فيه أو تتحلل داخله الى عناصرها الاولية ، ثم يعاد تركيب هذه العناصر على نحو جديد .. واعادة نظم احدى القصـــائد لا يدل على أن هذه القصيدة تفتقر الى الوحدة الصحيحة بقدر ما يدل على عناية الناقد بأهمية الربط اللغوى على النحو الذى يصادفنا فيما أعاد العقاد نظمه من أبيات قصيدة شوقى »(٣٩) والعقاد بذلك قد اتخذ من الشكل وسيلة يهدم بها شوقى وكان الاجدر به أن يطبق موازينه الجديدة على القصيدة فى حدود أسس النقد المتوارث أو المتجدد(٤٠) ، واذا كان العقـــاد لم يلتزم فى شعره الغنائى بمقاييس الوحدة العضوية التى ارتآها وحاسب شوقى بما لم يحاسب به نفسه ، فكانت حملته عليه عنيفة « فان هذه الحملة النقدية لم تكد تصنع شيئا لشوقى ومكانته الشعرية ، بل لقد امتـــدت تلك المكانة وانبسطت حتى أظلت العالم العربى كله »(٤١) .

---

(٣٧) راجع : الديوان فى الادب والنقد للعقاد والمازنى : ١٢٨/٢ .
والشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للسحرتى : ١٤٩ مطبعة المقطم ١٩٤٨ م

(٣٨) الديوان فى الادب والنقد : ١٣٢/٢ .

(٣٩) صراع الاجيال فى الادب المعاصر لغالى شـــكرى : ٨٤ ط : دار المعارف ١٩٧١ .

(٤٠) راجع : المرجع السابق : ٨٨ .

(٤١) مع العقاد للدكتور شوقى ضيف : ١١٤ .

والآن نتسائل لماذا يذهب كثير من نقادنا المحدثين الى ارجاع تأثر العقاد بالنقاد الغربيين فى فهمه لمعيار الوحدة العضوية وحقيقتها ، فمنهم من يدعى أن العقاد قد تأثر بنظرية (س . ت . كوليردج) — الناقد والشاعر الانجليزى المشهور فى صدر القرن التاسع عشر الميلادى — التى تنادى بأن العمل الادبى الممتاز مثل النبات الحى كل عضو فيه له مكانة المخصوص بحيث يؤدى نقله من ذلك المكان الى سواه ، أو عدم وجوده مطلقا الى تشويه ذلك الاثر الادبى ، ثم ان العمل الادبى يجب أن ينمو نموا عضويا كما ينمو النبات ، بحيث يتوالد بعض أجزائه من بعض ، وتكون امتدادا طبيعيا لها »(٤٢) ومنهم من يدعى أنه تأثر بكتابات هازلت — حول شكسبير وملتن — وهو من أعلام الرمانتيكيين فى مطلع القرن التاسع عشر(٤٣) . لماذا يرجع نقادنا الفضل الى النقاد الغربيين ؟ ! ولماذا ينسبون كل جديد اليهم ؟ ! فالدكتورمحمد غنيمى هلال يقول وهو فى معرض حديثه عن الوحدة العضوية أنها « من بواكر مظاهر تأثرنا المحمود بشعر الغرب »(٤٤) لماذا لا يكون العقاد والنقاد الغربيون أنفسهم قد تأثروا بنقادنا العرب القدامى الذين نادوا بوحدة القصيدة منذ القرن الثالث الهجرى كابن قتيبة والجاحظ وابن طباطبا والحاتمى ؟ !

ولماذا لا يكون العقاد فى قوله : « ان القصيدة ينبغى أن تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة كما يكمل التمثال بأعضائه والصورة بأجزائها ، واللحن الموسيقى بأنغامه بحيث اذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها »(٤٥) قد نظر الى قول

---

(٤٢) تاريخ الشعر العربى للدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى : ٢٠٢/٤ .

(٤٣) راجع : عباس العقاد ناقدا لعبد الحى دياب : ٤١٠ ط ٣ : دار الشعب ١٩٧٠ .

(٤٤) النقد الادبى الحديث للدكتور محمد غنيمى هلال : ٤٠٩ ط دار الشعب ط ٣

(٤٥) الديوان فى الادب والنقد للعقاد والمازنى : ١٣٠

الحاتمى منذ أكثر من عشرة قرون : « أن القصيدة مثلها مثل خلق الانسان فى اتصال بعض أعضـــائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الاخر وباينـــه فى صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه ، وتعفى معالم جماله »(٤٦) غير أن نقادنا العرب القدامى كانوا أفهم من العقاد لطبيعة الشعر الغنائى فلم يفرضوا عليه الوحدة العضوية بمفهومها النقدى الحديث الذى نادى به العقاد ، وعجز عن تطبيقه على قصائده الغنائية ، ولذلك كان زميلاه شكرى والمازنى أقرب منه الى الصواب فى دعوتهما لوحدة القصيدة العربية فقد كتب عبد الرحمن شكرى فى مقدمة الجزء الخامس من ديوانه تحت عنـــوان « فى الشعر ومذاهبه» يقول : « قيمة البيت فى الصلة التى بين معناه وبين موضوع القصيدة ، لأن البيت جزء مكمل ، ولا يصح أن يكون البيت شاذا خارجا عن مكانه من القصيدة بعيدا عن موضوعها ، وأنه ينبغى أن ننظر الى القصيدة من حيث شىء فرد كامل لا من حيث هى أبيات مستقلة ، وأن مثل الشاعر الذى لايعنى باعطاء وحدة القصيدة حقها، مثل النقاش الذى يجعل نصيب كل أجزاء الصورة التى ينقشها من الضوء نصيبا واحدا، وكما أنه ينبغى للنقاش أن يميز بين مقادير امتزاج النور والظلام فى نقشه، كذلك ينبغى للشاعر أن يميز بين جوانب موضوع القصيدة وما يستلزمه كل جانب من الخيال والتفكير »(٤٧) ، وتحققت وحدة القصيدة عنده بهذا المفهوم « فكل قصيدة من شعره غالبا ذات موضوع واحد مرتبطة أبياتها بعضها ببعض »(٤٨) والمازنى كذلك يدعو الشاعر الى أن « يلائم بين أطراف كلامه ويساوق بين أغراضه ، ويبنى بعضا منهـــا على

---

(٤٦) العمدة : ٦٤/٢ ، زهر الآداب للحصرى : ١٦/٣ ط : ٢ حجازى بالقاهرة .

(٤٧) ديوان عبد الرحمن شكرى : ٣٣٦/٥ ، ٣٦٧ ط دار المعـــارف ١٩٦٠ م راجع : محاضرات فى الشعر المصرى بعد شوقى للدكتور محمد مندور ٧٩ ، ١٩٥٧ م مطبوعات معهد الدراسات العربية .

(٤٨) خليل مطران شاعر الاقطار العربية للدكتور جمال الدين الرمادى : ٢٨٥ ط : دار المعارف ١٩٧٢ .
وراجع : شعر عبد الرحمن شكرى للدكتور محمد السعدى فرهود : ٢٨٨/٢ رسالة دكتوراة مخطوط بكلية اللغة العربية بالقاهرة جزءان .

« يلائم بين أطراف كلامه ويساوق بين أغراضه ، ويبنى بعضها منها على بعض ، ويجعل هذا بسبب من ذاك » (٤٩)ويرى « أن الصدق فى الاداء عن النفس هو جماع رأيه فى الفن جميعه »(٥٠) ، وسار فى قصائده على اعتبار أن القصيدة كل واحد وعمل فنى واحد وبنية حية مترابطة الاجزاء والافكار والاحاسيس ، وبذلك فشكرى والمازنى لا يفرضان على القصيدة الغنائية الوحدة العضوية التى يريدها العقاد ، وانما تعنى الوحدة عندهما أن تكون القصيدة ذات موضوع واحد بحيث يمكن أن نضع لها عنوانا يتناسب وفكرتها العامة التى تعبر عن المشاعر والاحاسيس فى صدق وأمانة ، وأن يسهم كل بيت فى نمو القصيدة ويرتبط بالمعنى العام ، ولكن « ليس بالقدر الذى اذا قدمت فيه بيتا على آخر ، أو أخرت بيتا أو حذفته اختل نظام القصيدة وبتر المعنى ، كما أراد العقاد »(٥١) .

يمكن القول بعد هذه الجولة مع نقاد العصر الحديث أنهم لم يضيفوا جديدا يستحق الذكر حول مفهوم وحدة القصيدة الغنائية ، وأن كل ما رددوه من مفاهيم قد سبقوا بها منذ القرن الثالث الهجرى الذى عرف الوحدة الفنية للقصيدة بمفهومها الصحيح ، والتى تمثلت فى وحدة الموضوع والافكار والمشاعر والصياغة وتلاحم المعانى ، بفضل جهودا ابن قتيبة(٥٢) والجاحظ (٥٣) وابن طباطبا (٥٤) والحاتمى (٥٥) وابن سنان الخفاجى(٥٦) وابن خلدون(٥٧) . الامر الذى يجعلك تطمئن الى أن كثيرا من الاصطلاحات النقدية الحديثة الوافدة من الغرب لها جذورها وأصولها فى النقد العربى القديم .

دكتور سعد عبد السلام نصار

---

(٤٩) الشعر غاياته ووسائطه لابراهيم عبد القادر المازنى : ٢٦ ، ط : البوسفور ١٩١٥ .
(٥٠) أدب المازنى لنعمات فؤاد : ٦٥ ، ط : دار الهنا ١٩٥٤ .
(٥١) دراسات أدبية لعمر الدسوقى : ٢٤٩/١ ، ط : النهضة .
(٥٢) راجع : الشعر والشعراء : ٣٦
(٥٣) راجع : العمدة : ١٧١/١ .
(٥٤) راجع عيار الشعر : ١٢٤ .
(٥٥) راجع : زهر الادب للحصرى : ١٦/٣ .
(٥٦) راجع : سر الفصاحة ٢٥٣ ، ط : المطبعة الرحمانية : ١٩٣٢ .
(٥٧) راجع : مقدمة خلدون : ٥٢٢ .